بقايا الفصاح

الأستاذ شفيق جبري

من الألفاظ المستفيضة في لغة العامّة ما يدلّ على حالةٍ من حالات العصر الذي استفاضت فيه ، من هذا القبيل : لفظة التشليح ، فقد جاء في معجم الفيروزابادي : التشليح التعرية ، وهي سوادية ، أي من لغة أهل السواد . وجاء في مقام آخر : يوم غواس كسحاب فيه هزيمة وتشليح . إن هذه اللفظة تدلّ على حالةٍ من حالات العصر الذي شاعت فيه فكثيراً ما استعملت في بلاد الشام ، فقد يحدث أن تاجراً من التجّار كان في طريقه في بادية من بوادي الشام فيخرج عليه جماعة من أهل البدو فيشلّحونه أي ينهبون كل مامعه من مالٍ وغيره ، أو أن رجلاً كان يسير في طريق من الطرق الخالية في الحضر فيتعرّض له من يشلّحه . وليس من الضروري أن يكون المشلّحون رجالاً فقد توسّعوا في معنى هذه المادّة ؛فإذا استولت امرأة على قلب رجلٍ غني واستصفت كل مايملك فيقولون شلّحته ، إلاّ أن هذه المادّة قد قلّ استعمالها في أيّامنا أي قد خفّ التشليح في البوادي أو في بعض الطرق الخالية ،وإن قام مقامه شيء آخر مثل القتل والإرهاب ونحوهما ، فالمهم من كل هذا أن لفظة التشليح مازالت مستعملة وإن قلّ استعمالها وهي فصيحة أي جاء ذكرها في بعض المعجمات ، وإن كانت سوادية ، وما أظن أن لفظة ثانية تعدلها في القوّة ، وإن كان في اللغة ألفاظ كثيرة تدل على معناها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مثل السلب والنهب وما شابه ذلك ولكن لمادة التشليح قُوَّة خاصّة لرسوخها في لغة العامّة ولجريانها على الألسن أكثر من غيرها . وقد تستعملها العامّة في معناها الحقيقي فهي تستعملها في معنى التعرية أيضاً ، فأيّ حرج في استعمال المواد التي تستعملها العامّة إن كانت فصيحة أو مدوّنة في معجمات اللغة فإن في مثل هذا الاستعمال مايقرّب بين لغة الخاصّة ولغة العامّة أي مايعين على استعمال اللغة الفصيحة في أحاديث الناس .

ولننتقل الآن إلى لفظة ثانيـــة ، إلى المآكل والموائد والولائم ، فقد يحدث في وليمةٍ من الولائم أو على مائدةٍ من الموائد أن رجلًا أكل كثيراً وأفرط في الأكل حتى تعبت معدته من كثرة الأكل أو مرضت فتقول العامة في مثل هذه الحالة إن فلاناً أكل وتبوّع في الأكل ، وهم يريدون بذلك أنه أكل كثيراً حتى أتخمه الطعام . ماذا نجد في اللغة ، نجد أن البَوْع مدّ البـاع بالشيء كالتبوّع وأن النعجة تسمّى : أبواعَ معرفة لتبوّعها في المشي ، وما يُدرَك تبوّعُه أي شأوه . لانجد توافقاً كثيراً بين لغة العامّة واللغة الفصيحة في هذه المادّة : التبوّع ، ولكن العامّة لهـا مذهبها في المجاز فإذا كان من معاني التبوّع مدّ الباع بالمشي فما الذي يمنع العامّة عن أن تنقل هذه المادّة من الحقيقة إلى المجاز فتعني بالتبوّع مدّ الباع إلى الأكل والإكثار منه ، وكيف كان الأمر فإن مادّة التبوع الدارجة في لغة العامّة إنما هي فصيحة .

وإذا فرغنا من الولائم والموائد فلنستمع إلى مخاطبة الناس ، فكثيراً مايصاب المرء في كلامه بشيء من الحَصَر أو العيّ في الكلام فيقال في مثل هذه الحالة : تعتع في الكلام أي تردّد من حَصَرٍ أو عيّ والتعتع الفأفاء . إن العامة تستعمل هذه المادة الفصيحة في كلامها وتريد بهـا مادلّت عليه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللغة الفصيحة ، غير أنها تتبسّط في بعض الحالات في معانيها فليس من الضروري أن يتعتع الرجل في كلامه أي أن يتردّد من حَصَر أو عيّ فقد يتعتع الخطيب في خطبته إذا كان لايستوعب موضوعه أو قد يتعتع الرجل في حديثه إذا كان غير ملمٍّ بجوانبه .

فلنشهد الآن مجالاً من مجالات العامّة يتسع فيه مذهبها في المجاز . إنّا نجد في اللغة : أَبزَ الظبي وثب أو تطلّق في عدوه ، لاشك في أن العامّة إذا استعملت هذه المادّة في لغتها فقالت : أبز فلان فإنها لاتكتفي بالدلالة على وثبه وتطلّقه في العدو ولكنها تريد بها وضعاً من الأوضاع ، فقد يحدث في مجلس من المجالس أن أحد رجال هذا المجلس يشرح أمراً من الأمور أو يفصّل قضية من القضايا وهو متمكن من موضوعه يتكلم بشيء من الرصانة وفي كلامه مايدلّ على الفهم فيتعرّض له في مثل هذه الحال رجل آخر ليس من وزنه إمّا حبّاً للظهور أو ميلاً إلى التعكير ، فيتكلّم وكلامه بعيد عن الصواب فيخلط في كلامه فيقولون في مثل هذا الوضع : وبينما فلان يتكلّم أبز فلان ، فهم لايريدون مجرّد الوثب وإنما يريدون مع هذا الوثب شيئاً آخر ، إنهم يريدون الدلالة على سخفه ، فكأنه قال مالايجوز أن يقال أو كأنه قال مالا معنى له أو مالا حاجة إليه ، فمادّة : أبز التي تستعملها العامة في هذا الموضع لها دلالة قوية ، إنها تصوّر وضعاً من الأوضاع الغريبة أو السخيفة .

ومن الألفاظ التي مالت العامّة في استعمالها إلى المجاز لفظة : عاطل يقال في اللغة : عطلت المرأة كفرح وتعطّلت إذا لم يكن عليها حَلْي فهي عاطل ، ولا نريد التوسع في معاني هذه المادّة وإنما نكتفي بأن نقول : تعطّل الرجل ، بقي بلا عمل ، ولكن الذي يهمّنا إنما هو المعنى الأول :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المرأة العاطل . أظن أن العامة لاتعرف أن المرأة العاطل هي التي ليس عليها حلْي ولكنها استعملت هذه المادة في أقبح المعاني فقد نقلتها إلى المجاز وأعطتها قوّة قبيحة ، فقد نسمعها في أحاديثها تقول : فلان عاطل ، فهي لاتريد بذلك أنه لاعمل له أو أن المرأة لاحلْي عليها ، وإنما تجرّد الرجل بقولها هذا من كل فضيلة وخلقٍ . على أن هذه المادّة قد وردت في شعر الشريف الرضي « أنا عاطل منها وأنت مطوّق » أي عاطل من الخلافة ، ولكن شتّان ماتريده العامّة ومايريده الشريف الرضي باستعمال لفظة : عاطل .

وأخيراً أريد أن أختم هذا المقال الوجيز بتعبير لايزال حياً في أيامنا وله دلالة قوية وقد استعمل في أدبنا القديم فكثيراً مايأتي ذكر رجل عظيم من رجال السياسة أو الشجاعة أو من أصحاب المقامات فيريدون أن يدّلوا على مبلغ قوّة هذا الرجل وعظمته فيقولون : فلان مامعه لعبة، أو ماهو قريب من هذا القول أي لاتجري عليه حيلة أو كذبة أو غش أو ما شابه ذلك فهو سليم من جميع الوجوه لاسبيل لى خداعه أو نحو ذلك وقد ورد مثل هذا التعبير في أدبنا القديم وإن كان التركيب يختلف فقد جاء في موطن من مواطن الأغاني : ليس مع السيف لعب ، أي إذا جاء ذكر السيف أو عمل السيف بطل كل شيء وكذلك إذا جاء ذكر فلان بطل كل خداع وحيلة .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net